العجائبية و البعد الديستوبي في رواية 2084
حكاية العربي الأخير- لواسيني الأعرج –أنموذجا

الدكتورة أحلام شمري، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية- قسنطينة.

تمهيد:

شهدت الساحة الأدبية الجزائرية تطورا ملحوظا في الأشكال الروائية، ذلك أن الرواية تمثل شكلا لا نهائيا قابلا للتجديد و الإبداع الفني في التعبير عن المألوف بنسق غير مألوف.محاولة خوض غمار التجريب في خرق السائد والانزياح عن الشكل و المضمون التقليديين.و لعل أهم مظاهر الخرق و التجاوز التي مست الرواية الجزائرية هو توظيفها للعجائبية التي تشكل من اللامألوف و الفوق الطبيعي و اللاواقع لتضع التردد و الحيرة في ذهن القارئ و الشخصية معا.ليعبر الروائي برمزية عن تداعياته ورؤاه وتوظيفها في قالب مختلف وبتقنيات عجيبة.

تشكل العجائبية ظاهرة حاضرة في الرواية الجزائرية المعاصرة، مما أكسبها سمات و خصائص تتفرد بها، حيث تترك أثرا خاصا في القارئ و تدفعه إلى طرح مسألة الممكن و المستجيل و في الوقت نفسه محاولة دفعه إلى التصديق؛ و تمثل رواية 2084حكاية العربي الأخير لواسيني الأعرج نموذجا للعجائبية، رغبة منه في معانقة التجريب والتنويع، وتأطير الأحداث بصيغ اللامعقول والتعجيب؛ حتى غدت العلاقة بين اللامعقول والتجربة السردية ذات طابع حميمي، حيث تنبني هذه العلاقة على العجائبي من خلال التناقض والمفارقة وخرق الواقع وهتك حدود العقل، من أجل تمرير الخطابات المتعلقة بالقضايا والأسئلة التي تقلق الإنسان.

جعل واسيني الأعرج من الكتابة الروائية سفينة النجاة، يرتاد بها عوالم تخييلية فانتازيا جديدة، ولغة سردية مع نفس متجددة في كل نص يبتغي فيه التجريب، متجاوزا حدود اللغة والزمان والمكان وتذوب فيه الشخصيات في فضاء نصي يعبر عن الإنسان وزيف الواقع المثقل بالهموم والتشظي.

ولذلك نسعى في هذه الورقة البحثية إلى تقديم رؤية ملخصة لما يتعلق بموضوع العجائبية في رواية 2084حكاية العربي الأخير؛ حيث إن العجائبية غدت سمة بارزة في الرواية الجزائرية.فالرواية العجائبية تسعى لتقريب الواقع الحديث المتناقض للمتلقين بسبل خيالية عجائبية علّ الخيال يسهم في قدرة المتلقي على فهم الواقع المتشظي واقع الانكسارات و كسر الطموحات، حيث إنّ المتلقي يكاد يجد مواءمة و تشابها بين الأحداث

العجائبية الخيالية و بين الواقع الحقيقي

المعاش و عالمه المحيط به.حتى أن القارئ يكاد يجد نفسه في الأحداث العجائبية بل يجد نفسه هو الشخصية العجائبية أحيانا في تشظيها و انكسارها واصطدامها بالواقع.

ولسعة موضوع العجائبية اقتصرت الدراسة على توضيح العجائبية و لابد للمتلقي من معرفة أسباب الخروج إلى العجائبية في الأدب،لذلك انتقلنايعد الحديث عن مفهوم العجائبية إلى بيان وظائف الفانتازية في الرواية و المغزى الذي ينشده الروائي من ميله إلى الخيال و العجائبية، واقتضى ذلك الحديث عن عناصر الرواية من شخوص و أمكنة في ظل العجائبية .

أولا: العجائبية السردية و تحولات الشخصية:

تمثل الشخصية الروائية كيانا موجودا داخل المتن الروائي، لها مقومات تحدد بما يمنحنا إياها السارد أو ما تقوله الشخصية عن ذاتها، أو ما يستنتجه القارئ من تصرفاتها.

لقد خرجت الشخصية الروائية من نمطها المألوف إلى نمط آخر يتصف بالغرابة و الغموض، محطمة بذلك دلالاتها المستقرة في الأذهان"فأي شخصية يخلقها الروائي مهما ابتعدت عن الأنماط أو مهما تميزت بالغرابة، وقد نقول بالتذوق أمر مشروع ووارد بالنسبة للروائي، شريطة أن يقنعنا بهذه الشخصية، ويقنعنا بوجودها، وتحركاتها و طاقتها على تصوير ناحية من نواحي النفس البشرية."[1]

وتعد الشخصية الفانتازية "مساحة مشتركة يجتمع فيها الواقع و اللاواقع، وإن طغى هذا الأخير عليها، وهي تقنية فنية استخدمتها الرواية الحديثة لتعبر عن أزمة الإنسان المعاصر، لذلك جاء البناء الفني لهذه الشخصية وفق رؤية جدية، لا تحتفي بالأبعاد الداخلية والخارجية فحسب، إنما تعمل على تعويض الصورة الثابتة للشخصية و العمل على هدم مرجعياتها الواضحة، ومن ثم إعادة تشكيلها بصورة غرائبية تتجاوز قوانين الواقع والطبيعة."[2]

---

[1]- جبرا إبراهيم جبرا، الفن والحلم و الفعل، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، ط2، 1988، ص348.

[2]- فيصل غازي النعيمي، العجائبي في رواية الطريق إلى عدن،مجلة تكريت للعلوم الإنسانية، مجلة علمية محكمة تصدر كل شهرين بكلية التربية جامعة تكريت، العراق، مجلد14، العدد2، 2007، ص 120.

يذهب شعيب حليفي إلى أن:"شخوص المحكي الفانتاستيكي هي شبكة قائمة بذاتها في ارتباط نسيجي مع باقي المكونات الأخرى، تدعم بعضها البعض، كما أن نوعية هذه الشخوص تشترك في خصائص ومميزات عامة. تفترق في بعض الخصوصيات بين محكي وآخر بحيث تتعايش الشخصية والتيمة، في جدل فعلي، يولد طاقة تخييلية تفسح المجال أمام القارئ، كي يتشدد و يتلبس التردد، والحيرة إزاء غرابة التكوين، أو الأفعال غير العادية."[3]

ولقد رسم واسيني الأعرج شخصيات روايته وفق منظور جديد ورؤيا تتجاوز كل الأبعاد الداخلية والخارجية، بل تعمل على تفويض ثوابتها، وخلخلة وهدم مرجعياتها قصد بعثها وتشكيلها بصورة عجائبية تتجاوز قوانين الطبيعة، لأن الواقع تجاوز واقعه، حيث شهدت تحول الشخصيات وخرق العرف الطبيعي للقوانين لترسم بذلك مشهدا عجائبيا يثير الدهشة والغرابة.

"منذ مائة سنة والذئب رماد يركض بلا تعب ولا نهاية، مخترقا هذه الجبال، وهذه التلال كرياح شتوية، أصبح يقرأ عنف الأشياء من حركة الأوراق واهتزاز الشجر ورعشة القمر.كلما أراد أن يفرغ صدره من التعب، عوي عاليا، رافعا رأسه باتجاهه. وعلى غير ما رواه بعض الأولين.فقد أنقد رماد أكثر من قطيع كان على حافة الموت بين نياب الذئاب الأخرى التي لاتحمل لون عينيه، ولا كثافة شعره الرمادي.وكاد يموت وهو يخوض معاركه ضدها بلا هوادة.....يلتفت رماد قليلا نحو الشجر والغيم الذي يلامس الأوراق العالية.ثم يتجه نحو مخبئه السري الذي لا أحد غيره يعرفه، لأنه يدرك جيدا أنهم يكتشفونه تكون قيامته.ينتفي نهائيا عن الأنظار."[4]

يصور الروائي صراع آدم العربي الأخير من أجل هويته، إنه صراع للبقاء بهوية أصيلة، إنه قلق مفزع أن يتحول إلى شبح بمجرد فقدانه لهويته العربية، يصارع آدم في صحوته وفي غفوته، في غيبوبته الذي يسرد لنا الكاتب تقلباته وانهياراته وارتعاشاته التي تحمل قوة لا حد لها من أجل التحام ذات آدم بهويتها وتاريخها وأصلها.

يعتبر الذئب رماد كشخصية رمزية معادلا موضوعيا لهوية الرجل العربي لآدم

---

[3]- شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية، دار الأمان، رباط، ط1، 2009، ص 200.

[4]- واسيني الأعرج ، 284حكاية العربي الأخير، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط2016، صص17-18.

العربي الأخير في الرواية، فيصبح حدث اختطاف آدم بمثابة اختطاف رمزي هو اختطاف هوياتي .

يصارع فيه آدم من أجل الالتحام بالذئب رماد الذي يمثل هوية العربي التي لم تتغير ولم تمح، يقول آدم"أقسم أني رأيته، شممت رائحته، سمعته يعوي من شدة العزلة. كل سلالته ماتت و بقي رماد مثلي في مكانه، لا هو مدينة ولا هو غابة،عندما فتحت الكوة الصغيرة في الظلمة الباردة،المطلة على الفراغ و الكثبان الرملية التي تتخفى وراءها، بعيدا،واحة النخيل، نسيت كل شيء وبدأت أنصت حتى أخذني النوم، سمعت عواءه، ثم تقطع أنفاسه، ثم أنينه ثم حنينا يشبه البكاء، قبل أن تلتهمه التلال، بينما غرقت في بحر من الخوف والدم ملأني حتى ركبتي قبل أن أقوم مذعورا من الكابوس.لا أدري أنا العربي الأخير، كما يسمونني هنا،The Last Arabic ماذا يفعل بي رماد وهو الذئب الأخير في سلالته."[5]

يصور الروائي الذئب الرماد الأخير في سلالته/آدم الرجل العربي الأخير.و هو ينصت لعوائه وأنفاسه تتقطع.ثم أنينه الذي يشبه البكاء، وهذا يدل على نداء الهوية في ذات آدم، التي تختنق من الوحدة والخوف من الموت، كان آدم يستمع إلى نفسه، إلى ذاته التي تنادي باتحادها مع هويتها، هذه الهوية التي يحرسها الذئب الرماد.

"صوت واحد ظل مميزا فيها، و يطغى مجتمعة، يعوي و كأنه يتكلم.في الكثير من الليالي الصافية يسمع نداءاته ويفهمها، من تحت كوة غرفته العالية التي كأنها معلقة في الفراغ.نفس بحبة رماد،كم وصفته جدته، عندما يكون مجروحا أو يفقد أحد أبنائه، أو يسرق الموت أنثاه و رفيقته، ونفس نداءاته ليذكره بأن آخر السلالات و أصلها، ما يزال هنا."[6]

إن ذئب الرماد كما سماه الكاتب رمز للغربة، والوحدة وعدم الإستقرار، والقوة والتوحش والغزو و الترحال من مكان إلى آخر دون استقراره.فكان دائما غريبا في البلاد التي حل بها، فالكاتب قام بنوع من التمثيل بين الحضارة العربية و الغربية، فآدم بنتمي إلى عالم عربي بفكره و ثقافته وطريقة تفكيره، وهو ما جعله غريبا عن ذلك العالم"العالم الغربي"وكأنه مطموس المعالم، ففكرة الاستئذاب بدت جلية في متن الرواية، وذلك

[5]- الرواية، صص18-19.

[6]- الرواية، صص53-54.

الذئب الذي يعود طيفه للجد الذي يرمز إلى الاصل فتمثلت شخصيته الذئبية التي جعلت شخصيته مختلفة عن الناس الآخرين.

تتواصل نداءات الهوية من أعماق البطل آدم في الرواية، كلما نسي ذاته كلما تعبت ذاكرته، أيقظ ذلك العواء الداخلي كل شيء بدأ يخبو في وسط غربة قاتلة.

" عووو

فجأة اخترق العواء الظلمة.مرة أخرى، كان مثل الصرخة الطويلة، قبل أن يغيب في عمق الفراغ، وسط الرياح التي كانت تعصف بالرمال وبأناشيد الموت التي كانت تخترق الحيطان والقلوب و ل ما تصادفه قريبا منها. كان العواء المخنوق يأتي من الهضبة التي تخفي جزءا من غابة النخيل، من مكان قريب، مصحوبا بعيارات نارية متفرقة."[7]

"امنحني يا رماد، يا سيد السلالة التي أكلتها الأنواء و رمال العطش والحروب و زهو الذين صنعوا مصائرها، بعض سرك قبل أن تنام في ظلها، وقبل أن تتعرى السماء التي تغطيك، تعودت أن تركب البحر بلا سفن وتقذف بنفسك في المهاوي بلا جزع، أنت تعرف، أنه بلا جنون، لا مستقبل للحياة.وحدك سكنت المخاوف حتى ذللتها.من يشبهك في هذا غيرك؟وكم أشتهي أن أكونك يا رماد....أتحمل عواء الجبال المسكونة بتاريخ الأجداد، مغمس في البرد و تحت غطاء الثلوج، تقذف بي الحياة وحدها خارج المهالك.في شيء من نارك لكن لك وحدك."[8]

ذلك أن هوية العربي باقية حتى لو اندثر العرب أنفسهم؛ لأن هذه الهوية موجودة في التاريخ و لن تمحى أبدا لأنها جزء منه و هو جزء منها.

يواصل الروائي تأكيد أصل الذئب و تعميق صفته التي أطلقها على آدم في رواية:

"من حدة حاسة الشم لديه، أصبح آدم يعرف كل شيء، بما في ذلك رائحة المواد القاتلة، مثل الأسلحة الكيماوية، هو متأكد من أن هذه الحاسة ليست آدمية، فقد ورثها من جده الأول الذئب رماد كانت تقول جدتي في طفولته: رماد لا يكبر و لا يموت.....وكلما أغمضت عينيك، شعرت أنه يسكن فيك."[9]

---

[7]- الرواية، ص 42.

[8]-الرواية، ص 45.

[9]-رواية، صص89-90.

ذئب الرماد وظفه الكاتب كثيرا في الرواية، خاصة في الحلم الذي كان يراود"آدم"كل ليلة و كأنه ضميره الآخر الذي لا ينام في كل مرة يصحوا في أعماقه فيخرج آخره المتعطش لرائحة الأجداد؛ حيث يحكي له ذئب الرماد كل ما يحدث في وطنه و يعاتبه على غفلته على شعبه و سلالته.

يصور الروائي الوضع المزري و القلق النفسي الذي عانى منه آدم من فقدانه لهويته، هذه الهوية التي اتبعها تأزم و تقهقر حضاري، نتيجة الصراعات و الأزمات التي عاشها العربي.

كان آدم بطل رواية 2084 حكاية العربي الأخير، يصارع الموت بعد إصابته برصاصات الشعوب المتقاتلة فيما بينها.وكان ينادي نداء الهوية الهاربة لم يشأ أن يغادر الحياة إلا بدونها كان ينادي الذئب رماد سيد سلالته:

"انتظرني يا رماد، نداءاتك تصلني ولكني مجروح حتى الأعماق يا سيد السلالة الأولى، أريدك بكلي لأنتمي إليك للمرة الأخيرة، فهل تسمع جرحي و وفي؟انتظرني يا آلمي الدفين وزني العاري وجرحي المفتوح لقد أخفقت في كل شيء، حتى في أن أكونك كما أنت، سيد الظلال والهضاب الخضراء وقمم الجبال وعمق رماد البراكين، لا تذهب وحدك نحو مدافن الرمال الحارقة، أريد أن أموت معك ونحن في عاصفة واحدة، وجنون أخير.....وليختلط نداؤك الليلي الدائم بعوائي الذي لم يسمعه أحد منذ أربعة عشر قرنا، يوما يوما، شهرا شهرا، سنة سنة، وقرنا قرنا.انتظرني، يا سيد المخلوقات الحرة."سيد الظلال الهاربة."[10]

يؤكد هذا القول الوضعية الصراعية التي يعيشها آدم في قلعة أميروبا المتخيلة، وقيامه بأفعال تضر شعبه ووطنه، يسعى إلى الانتماء لسلالته الإرابية الحقة في كل مرة ولكن لا حول ولا قوة، فهو يقف عاجزا عن رد قوى الظلام والشر.

الروائي يجسد ذلك الصراع الذي يعيشه معظم العلماء العرب الذين قيدوا بسلاسل الغرب، وهم يقفون عاجزين عن إسكات صوت الضمير فيهم.ورد قوى الشر التي تملكت نفوسهم، وضعت منهم نسخة غيرهم، فأصبحوا يعيشون صراعا مريرا صراع آهات الآنا و الآخر.

يسعى واسيني إلى تكريس إيحاءات العجز و الانسحاق اللذين يأتيان نتيجة تسلط

[10]- الرواية، ص460.

قوى قهرية ما على الذات، وامتصاصها، وعنفوانها.بل يأتي هذا في قمة الالتباس والغموض، الذي لا يدري آدم نسبه ولا مصدره و لا نهايته، لأنه قهر داخلي، ينبع من الذات، ويرتد إليها، ويتأثر حتما بسياقات الخارج، واضطراباته المحتدمة، ولكنه وفي خضم هذا التفاعل الإلتوائي الغامض بين الداخل والخارج، تتراءى الذات في قصة تضعضعها وانكسارها، الذي يبلغ دركاته بقدان هذه الذات وعيها الحميمي بكيانها وهويتها.

يكادالمتلقى يكاد يجد مواءمة و تشابها بين الأحداث الفانتازية الخيالية، وبين الواقع الحقيقي المعاش و عالمه المحيط به، حتى أن القارئ يجد نفسه في الأحداث الفانتازية، بل يجد نفسه هو الشخصية الفانتازية أحيانا في تشظيها وانكسارها و اصطدامها بالواقع.

ثالثا: عوالم العجائبية و الواقع في رواية 2084حكاية العربي الأخير:

تخضع الروايات الكلاسيكية في الغالب لمبدأ التتابع الزمني القائم على التماسك والوحدة في أبنيتها السردية، على الخلاف تميل الروايات ذات البعد الفانتازي إلى تشتيت الحدث الرئيسي وتشظيه وتفكيكه،والإبتعاد عن التسلسل المنطقي للأحداث، وانتمت رواية 2084 حكاية العربي الأخير لواسيني الأعرج إلى هذين التيارين وأخذت من الإثنين ملامحها وبنيتها السردية، فجاءت هذه الرواية حاملة سمات التسلسل الزمني للأحداث وفي الوقت ذاته حملت سمات الطابع التفكيكي للأحداث ومن ثم لا منطقيتها ولا معقوليتها.

يرتكز الحدث الفانتازي "على الفانتازية ليتجاوز من خلالها الواقع ويغرق في الخيال والتخييل؛ لأن العالم الفانتازي يرفض كل ما هو طبيعي ويحتج عليه، وهذا ما يربك العلاقة القائمة بين الفعل الروائي التخيلي والفعل الواقعي اليومي."[11]

كثيرا ما تتسلل الفانتازيا إلى بعض البنيات السردية الأخرى في المدونة الروائية فتتعالق معها، وتضفي على المتن الروائي أجواء غرائبية تحدث الدهشة و الإستغراب اللذين يتوقعان من المتلقي إزاء هذه الأحداث غير النمطية، ويظهر هذا النفس الغرائبي

[11]– فيصل عازي النعيمي، شعرية المحكي–دراسة في المتخيل السردي، شعرية المحكي دراسات في المتخيل السردي العربي، دار مجدلاوي للنشر و التوزيع، عمان، ط1، 2013، ص89.

في رواية 2084 حكاية العربي الاخير لواسيني الأعرج،ثم يقوى فيما بعد ليصبح تيارا واضحا وملموسا يتحدى الرتابة التقليدية، ويهدم المتعارف عليه من جانبه الشكلي للرواية، ويقدم وقائع وأطرا "لا تتطلب تصديق القارئ؛لأن التعامل معها سوف يكون على أساس أنها طروحات منهجية وتضطلع الصفة الميزة لغرائبيتها بمهمة التعليق على الأفكار لمطروحة بشتى السبل."[12]

إن الواقع و الفانتازيا يجسدان محورين أساسين في تأسيس المعرفة، وحينما لم يجد واسيني فانتازيا خرافية أكثر غرائبية من الواقع الذي يعيش فيه، حاول الروائي أن يقدم تصورا غرائبيا للواقع، هذا الواقع تحت سيطرة"ليتل بروز"قائد القوات في قلعة أميروبا وهو يعمل تحت إمرة جنرالات أسطول رابط بين البحر الأحمر و مضيق هرمز.وهو عسكري بلا قلب وبلا روح، فقد عضوه الذكري وأحد أطراف جسمه في حادث سيارة صهريج محملة بالنفط في منطقة الرمادي في العراق، بالقرب من سيارته العسكرية برفقة والده الذي لقي مصرعه.

"تعود ليتل بروز أن ينام بنصف عين مثل الديك حتى لا تداهمه صورة الحادثة التي كادت تؤدي بحياته في الرمادي، التي تعاوده كلما أغمض عينيه بغبارها ودمها وصراخها، فقد فيها والده العسكري،حينما التصقت بشاحنتهما سيارة صهريج أودت بحياة الكثير من عساكر الشاحنة، ووالده، بينما أصيب هو بحروق من درجة الثالثة في كامل جسده ووجهه وانتهى الأمر ببتر يده اليسرى ورجله اليمنى، بقي على إثرها في ألمانيا مدة زمنية حتى تم من خلالها تأهيله تعويض العديد من أجزائه بأعضاء اصطناعية، بما في ذلك عضوه التناسلي الذي يساعده على التبول، طلب بعدها العودة إلى مكاته بصعوبة،حصل على الموافقة."[13]

اشتهر بعنصريته البغيضة وكرهه لكل ما هو عربي وأجنبي، يرفض باقي الهويات والاندماج في ثقافة الآخر، ظل يحلم برتبة ماريشال طوال حياته يشبه موسوليني في ملامحه و صلعه، بل حتى في جنونه وقسوته.

"لكن آدم حالة خاصة يا سيدي، و له اعتبار كبير في الهيئات العليا الدولية.و عند ضباط البحر الأحمر ومضيق هرمز.من الأفضل عدم الإصطدام معهم و أنت على مشارب

[12]- ت.ي.أيتر،أدبالفانتازيا،ترجمة سعدون السعدون، دار المأمون، بغداد، ط1989ص 12.

[13]- الرواية، صص21-22.

الإرتقاء إلى رتبة ماريشال.

-أنت تعرف موقفي جيدا. وحتى شعاري الذي أخذته من غيري لأنه يعبر عن شيء حقيقي، العربي لايصبح جيدا إلا بعد موته.كائن غريب متعلق حتى الموت بفضلات التاريخ و لا أعرف ماذا يجني من وراء ذلك.هو يقتل نفسه بنفسه بحشرها في الموت."[14]

يسرد واسيني الأعرج في روايته"2084حكاية العربي الأخير"عالما حكائيا خصبا، يستمد جذوره من الواقع العربي و مآسيه و تاريخه الحافل بالحروب و الإضطرابات.

وقد عمد إلى مزج هذا الجانب المأساوي بمشهد أو بمشاهد أخرى عجائبية تفيض غرابة.لم يسع من خلالها الروائي إلى الهرب من بشاعة الواقع، بل عمل على تحديه و مقاومته بالسحر والخيال.

" رأى الهضاب وهي تنسحب مشكلة أشكالا مختلفة من وراء المطر الذي تحول إلى غلالة بيضاء، تخفي خلفها كل شيء، أو تكاد.لابد أن يكون شيء ما تغيرفي هذا العالم الأصفر الذي لا حياة فيه إلا للعقارب والحيوانات التي منحتها الطبيعة سبيل للمقاومة، أو في طريقه إلى التغيير، كم من الزمن مر يا ترى على هذا العبث؟سنة؟ سنتان؟ خمس؟ عشر سنوات؟ في هذا المكان.شكل الوقت هو، هو، كما ولد في بدء الخليقة، لا حدود لسيولته القاسية.كل شيء يتشابه.الليل والنهار كل ما تراه العين، كأنه صورة مثبتة في زمن توقف منذ فترة موغلة في القدم."[15]

رواية واسيني الأعرج تدخل في باب الفانتازيا غير العبثية، تسرد واقع الشعوب العربية، و انحدارهم المتسارع نحو تلاشي كيانهم التي لم تخرج من عباءة العشيرة و الطائفية.

"أنا الكولونيل صامويل لوكوك، قائد الكتيبة العاشرة في قلعة أميروبا، وأنا أيضا المكلف هذا الشهر بإطعام هؤلاء الآرابيين القادمين من بعيد، مساكين حقيقة، تأكلهم الصحاري والبرد والمجاعات.انظري عظامهم تكاد تنكسر وتخرج من تحت الجلد من شدة الجوع. والتعب والخوف.تكاد خرقهم التي تمزقت على جلودهم أن تنتفي نهائيا وتكشف عن بقايا أجسادهم المتهالكة، يتقاتلون على لا شيء لكني مستغرب كيف لا يأكلون لحم بعضهم البعض ويفضلون الموت والتحول إلى غبار للمقابر، على القيام بذلك، مع ذلك،

[14]–الرواية، ص22.

[15]– الرواية، ص 43.

الجائع لا يؤتمن، يجب الحذر منهم، الرحمة كما يقول الماريشال ليتل بروز وقبله جدة بيغ بروذز على الخير، والقوة إذا غاب أحدهما اختزل الميزان، الضعف يقتل الخير، الكثير مما ترونهم الآن يلتصقون بعضهم البعض لكي لا يسقطو من شدة العطش والجوع، سيموتون عند البوابة من شدة الإنهاك، أو بعدها بقليل."[16]

ويبدو أن فانتازيا واسيني تتحول إلى واقع ملموس وحقيقي عندما نتابع يوميا قصص ومأساة اللاجئين الذين يفرون بالقوارب وتوفير أجسادهم طعاما لحيتان بالبحر، و الرواية هي بمثابة صفارة إنذار لما سيؤول إليه حال هذه الشعوب التي تعيش خارج الحياة و الحضارة.

"في آرابيا أيضا حروب طاحنة مزقتها و قتلتها.بدأت بتمزق محدود، إثني أو قبلي أو عرقي أو لغوي قبل أن يتحول إلى حرب عبصية بلا نهاية.داخل هيكل برابيا، هناك أرابيات، شيعة و سنة.دروز، وأرمن، وأكراد وأمازيغ، لم يعترف لهم بأي حق، الباقي يقفون على أرض هشة.الفرق بين آرابيا والعالم الآخر، هي أن الثاني على الرغم من العنف هناك إصغاء لحل المعضلات، كما في بلجيكا وسويسرا وإيطاليا وكندا الهند، باكستان، وفرنسا وأمريكا والصين وروسيا و غيرها.لكن آرابيا لم تمنح فرصة تأمل وضعها بسبب جنون حكامها وأطماعهم و إخفاقهم.كلما زادت الحروب كثافة، والفقر توغلا، أصبح التفكك سريعا و كبيرا، ومن الصعب التحكم فيه."[17]

إلا أن الروائي وفي خضم هذه السوداوية والتشاؤم، الذى سيؤول له الواقع العربي من إنكسارات وتشتتاتوتمزقات، و عيشهم داخل دوامة التحلل والتفكك التي قذفت بهم خارج التاريخ وحولتهم إلى شعوب ضائعة، بلا أرض ولا هوية.يبحثون عن معاشهم وسط عالم جشع ، وعودة محمومة إلى الحاضنة الأولى الصحراء وكأن تاريخ آرابيا القادم والقاسي يبدأ من تلك اللحظة، لكن آدم العربي الأخير ؛ هذا العالم الفيزيائي النووي، استطاع بتفوقه أن يبحر في أبحاثه المسكونة بهاجس تفجير القنبلة النووية في هيروشيما البلد الذي تنتمي إليه زوجته اليابانية، ويقتنع مزعوما ومخدوعا بأن أبحاثه ستقود إلى إنقاد الإنسانية و تطوير قنبلة الجيب الذكية، لمحاربة الإرهاب، ويجنب المدنيين ويلان التفجير.

---

[16]- الرواية، صص69-70.

[17]- الرواية، ص148.

"بعد كل زمن الذي أمضاه في القلعة، ما يزال، على الرغم من التحسينات، لا يعرف وضعه بدقة.هل هو أسير جيء به من بعيد بعد رحلات متعددة قبل أن يجد نفسه في هذا المكان، في قلعة أميروبا؟كما كان يفعل البحارة والقراصنة عندما يلقون القبض على إنسان ويضعونه في المخازن التحتية من سفنهم الخشبية الثقيلة، مع خليط بشري وحيواني، ولا يعرف شيئا عن وضعه إلا عندما يتم إنزاله منها في الساحل الحالي، على حافة ميناء قديم، ليعيش كل لحظة بلحظة؟ هل هو آدم الذي شاءت سلسلة من الصدف و الأقدار المتكانفة أن تجعل منه خبيرا عربيا نوويا، يملك معلومات دقيقة، وفي رأسه كل قواعد العمل النووي وأرقامه، وكانت أبحاثه من وراء فتوحات علمية كثيرة، يخافون أن تتسرب ويستعملها الإرهاب الذي تغير وجهه كثيرا، إذ زاد جفافا، و أصبح يملك الأدوات و العقول لصناعة قنبلة متوحشة قادرة على الإفناء والتدمير في مقهى، في مطعم، في مدينة، لم يعد في حاجة إلى منصات إطلاق تلتقطها الأقمار الصناعية المبثوثة على كل الرؤوس، فتدمرها في مكانها، الأخطر من هذا كله، يتعايش اليوم الإرهابي في نفس الجسد المسالم."[18]

يشتغل في أحد المخابر النووية في بنسلفانيا في الولايات المتحدة، يفكر مع فريق بحثه لتجاوز ساندروم هيروشيما وناكازاكي بالتفكر في قنبلة نووية صغيرة، مهمتها الجوهرية ردعية و ليست حربية، قنبلة مزدوجة من البورانيوم و البلوتونيوم تحمل اسما رمزيا PBPu1و PBPp2؛ للوقوف في وجه التنظيم الذي هو خلاصة لكل ممارسة إرهابية.

تسرد رواية 2084حكاية العربي الأخير في متنها الحكائي، قصة ضياع آدم في قلعة أميروبا الذي حول المكان إلى لغز أو متاهة، ومما يزيد من حدة ضياعه في هذا المكان، أنه لا يعرف لما لجأ إليه؟ وما الغاية من اختطافه؟ومن الجهة التي حاولت اختطافه؟.

إنها رحلة يشعر فيها بالضيق والاختناق والخوف، ولا سيما أنه يتعرض للرصد من الآخر الذي يمارس سلطته على الذات التائهة، فإذا كان الآخر يمكنه أن يكون دليلا ومرشدا إلى الخلاص، ففي هذه الرواية يتحول إلى فخ يترصد الذات للإيقاع بها.

"كأن أصواتا خفية كانت تأتي من بعيد، محملة بالجنائز والخوف.تشبه في عمها حركة الرمال وهي تكنس كلما تصادفه في مسالكها، وتحاصر هذا المكان المعزول والذي نبت في الرمل بشكل غير محسوب كأنه نبتتة شاذة.قلعة أميروبا داخل خواء رمل تشبه

[18]-الرواية، صص304-305.

صحراء التتا، لا هي سناتوريوم للراحة بعد عملية دقيقة، لأنها ضخمة و حيطانها سوداء كأنها نجت من قصف جوي مدمر، أو من حرق مهول، أو من بركان هزها من قواعدها.و لاهي مكان للحجيج العابرين نحو الأولياء الذين مرو بها، قبل قرون.وله مستشفى عادي خاص بمرضىٰ معزولين عن بعضهم البعض خوفا من عدوى الجذام.كان عليه أن يتعود على المكان وعلى كل ما فيه من عزلة و خوف وزواحف ورياح مثقلة بالأصداء.غيابه في عمق الكتابة من حين لآخر، أو تسجيل شجنه كان يمنحه بعض الراحة والرغبة في استمرار، بالخصوص عندما أغلق ليتل بروز كل شيء في وجهه.جهازه الصغير الملتصق بصدره أصبح أنبسه وابتلع الورق.أصبح يسجل فيها الصغيرة والكبيرة."[19]

لقد عمد واسيني الأعرج إلى بنية سردية ملغزة، جريا وراء رواية ما بعد الحداثة، فتقصد تغييب الواقع تماما، و خلق عوالم فانتازية، ولذلك فإن تشكيل البعد الفانتازي في الرواية يتأتى من خلال:

-متاهة المكان الذي يشعر فيه آدم نفسه فيه، المكان، قلعة أميروبا، ثم التحول الدراماتيكي في الأحداث، من سجن إلى حرية، ومن إتهام إلى تكريم.ومن متعة إلى كابوس...الخ.

-فقدان آدم لهويته على مستوى اسم، الملامح، والذاكرة.

-إصرار الآخر (ليتل بروز)على تعميق هوة الانفصال بين الذات(آدم)، و العالم الخارجي من جهة.و بين الذات و عالمها داخلي من جهة أخرى.

مكان الرواية لم يكن محدد المرجعية، فلا إشارة واضحة إلى جغرافيته، باستثناء بعض ما سمعه"سمع وقرأ بعض التفاصيل عنها قبل أن يجد نفسه في عمقها.يعرف مثلا أنها مكان استراتيجي في عمق الربع الخالي، لمراقبة تدفق النفط عبوره نحو أوروبا و أمريكا.كانت تبدو له في النهاية، مثل ثكنة عسكرية، مرمية في الرمال، لا شيء فيها إلا رائحة النفط و لمحروقات والخوف، وآلات مخفية تحت الأرض، وفي خفايا السماء، لتحسس أي شيء غير عادي في أرض بلا حدود، حيث لا حياة إلا للعواصف الرملية والرياح، والحشرات المقززة التي تنبت في المكان كالفطريات السوداء، كالعقرب مثلا الذي كاد يقتله، في ليلة من الليالي، في أولى أيامه في القلعة مد يده عليها وهو يبحث عن منذيله

[19]- الرواية، ص 90.

في الظلمة، ليضعه على فمه ويمسح جفاف لسانه الذي عمقه السعال.من حظه صرخ من اللذغة، فانفتحت تلقائيا الشاشة الكبيرة، جاء الصوت المعدني:لا تخف.مجرد لدغة عقرب.القلعة ستتكفل بكل شيء.شعر يومها بالأمطار تهطل على وجهه و جسده، و بالبرودة تسكن دمه."[20]

أن غرائبية المكان تعمل على زيادة مساحة الغموض والتعتيم.ومن ثم زيادة مشاعر الخوف في نفس الشخصية والقارئ معا، فعملية التقويض و التدمير المعتمدة لواقعية المكان.هي من أضفى الطابع الفانتازي عليه، طابع الفانتازية، المتولدة من قدرته على أن يتحول في ذهن الشخصية، إلى متاهة متزامنة، ليس لها أول ولا آخر، الدخول إليها يشبه الدخول إلى عالم التيه والغموض، و الخروج منها ولادة متمناة.

"مدخل المكان المبهم مملوء بالبرك الصغيرة التي يتلألأ داخلها ضوء الساحة الخافت.قضى زمنا طويلا يبحث عن تسمية المكان غير قلعة أميروبا، لكنه مع الزمن أعفى نفسه من الأسئلة المملة و غير المؤدية.الشيء الوحيد الذي يعرفه جيدا أنه وحيد، وفي مكان مغلق، وفتحاته قليلة ا تقود إلى أي شيء، ولا حتى إلى الفراغ، لا فراغ في هذا المكان الثقيل، كل شيء ممتلئ بشيء ما، برائحة ما وبخوف ما أيضا.الفتحات العليا، داخل المقصورات، كما يسميها ليتل بروز، لا تظهر إلا سماء فارغة، لونها رمادي رصاصي، لا يتغير أبدا، كلما تأمله آدم، شعر باختصار الحياة وشطط القلب، لكنه يقاوم النهايات العبثية.خمن ببساطة أنهم يريدونه أن يبقى حي وإلا ما الذي يمنعهم من اختصار حياته بالشكل الذي يريدونه؟فهو ما يزال حيا عن طريق الغلط، أو بمحض الصدفة."[21]

وقد أثر تشكيل المكان لونيا في زيادة مساحة هذه المشاعر"عندما سئل عن اللون الذي يشتهي في فرفته قال بلا تردد الأبيض لأنه يعطي الإحساس بالراحة و الاتساع.لا علاقة لهذا اللون باللون في الطابق السابع، عند الماريشال يشبه كفنا مخيفا.....لأن كل الألون من مشتقات الأبيض والأسود ودرجة اختلاطها الذي ينحو من البياض نحو الرمادي نحو الأسود.ثم إنه كان يعرف سلفا أنهم لن ينجزوه كما يريده، هناك زهري من زهري، حتى يوم كاد أن يقتل، في تلك المصيدة الخطيرة،كانت تلبسه، وكانت تبدو كملاك لولا تلك السرعة الغريبة التي حدث فيها بها كل شيء، وحافلة الخطوط الجوية التي

[20]- الرواية، ص 123.

[21]- الرواية، ص 92.

وقفت بينهما."[22]

فاللون الابيض على سبيل المثال، يسهم في عملية اللاتعيين لأن فيه تختفي الملامح، ولا تظهر التفاصيل،إلا بوجود الألوان الأخرى، وعلى الرغم من أن الأبيض يرمز إلى السلام، إلا أنه في الحقيقة لون حيادي ، فعندما يطغى هذا اللون على غرفة آدم كما في غرفة البيضاء للقلعة، فإن هذا الأمر يجعله مكانا غامضا يبعث على الخوف و الرهبة، و لن يساعد آدم في معرفة الخروج من المتاهة ووضع حد لحالة التيه و الحيرة.

نستخلص مما سبق، أن السرد الفانتاستيكي ليس جنسا أدبيا قائما بذاته، بل إنه جنس تغلغل في النص الروائي، محاولا التعبير عن مواضيع فكرية، سياسية، اكتسبت صبغة أدبية، تنتمي إلى الجنس الروائي، ولذلك فإنه مجرد تقنية لسرد أحداث فانتازية غرائبية، تساعد لتوليد إحساس مخالف لما يمكن أن يولد النص الواقعي.

فالنزوع إلى الفانتازيا في رواية 2084 حكاية العربي الأخير.كان من باب اشتغال حداثي على مستويين:على مستوى المادة الحكائية وعلى مستوى الشكل؛ على مستوى المادة الحكائية، الغاية إنفتاح واسيني على عوالم الفانتازية في نصه الروائي، كان من باب إزاحة النقاب واللبس عن الواقع الإنساني غير المرغوب فيه، ليس بقصد تعريته بل وإنما من أجل إندار بحتمية وقوعه.

أظهرت دراستنا في تحليل رواية 2084حكاية العربي الأخير، تأويل دلالاتها من العنوان والشخصيات والأحداث بما يفتح آفاقا جديدة لفهم غاية النص الروائي وأهدافه، وهو أسلوب لم يكن مطروقا في روايات واسيني السابقة بشكل بارز، كما أن حداثة السرد في رواية 2084حكاية العربي الأخير تكشف-في بعض الأحيان- رغبته المكبوتة، والدفينة في استشراف واقع متخوف من وقوعه.

[22]- الرواية، صص167-168.